

مول كتاب « مصطفى كامل »

## مصطفى كامل والسيادة العثمانية للأستاذ محمود العمري

—•••••—

في عدد الرسالة الصادر في ٢٠ فبراير كلمة للأستاذ العقاد عن كتاب « مصطفى كامل » لعبد الرحمن بك الرافعي ، لا يسع قارئها إلا أن يرى فيما جاء بها ، حواراً طبيعياً بين مؤرخ (سعد زغلول) ومؤرخ ( مصطفى كامل ) . وقد أوسع الأستاذ العقاد مجال المناقشة من الجانبين ، إذ قال في آخر كلمته أن ليس للقارى أن يطلب الحق كله من كتاب واحد لاسيما في تاريخ مختلف فيه الليول والآراء . وهذه دعوة ضمنية إلى طرح الموضوع على بساط البحث كما يستتير أبناء الجيل الحاضر ممن تأثروا بحركة سعد زغلول دون حركة مصطفى كامل .

واللهم في هذه الكلمة أن الأستاذ العقاد يأخذ على عبد الرحمن بك أنه ظل غير متحيز في سلسلة كتبه عن الحركة القومية منذ الحملة الفرنسية إلى أن وصل إلى مصطفى كامل فتحيز له ضد خصومه : ولأجل أن نبحت هذه الملاحظة لا بد لنا من الرجوع إلى السياق التاريخي لمنطق الوطنية المصرية منذ الحملة الفرنسية ، لتبين ما إذا كان هناك عدم تناسق في حلقاتها ؛ وعندئذ نرى الحكمة الحقيقية فيما قاله عبد الرحمن بك في مقدمته : من أنه كان في أول الأمر يريد ترجمة سيرة مصطفى كامل ، فأدى به البحث إلى أن يهد لها بتحقيق تاريخ الحركة القومية منذ الحملة الفرنسية التي تعد بداية محاولة دول أوربا الاستيلاء على مصر بأساليب واحدة ؛ إذ أن حركة مصطفى كامل لا يمكن اعتبارها من جانب المؤرخ الحقيقي إلا حلقة من حلقات سلسلة جهود المصريين للوقوف في وجه الفاتح الأوربي ؛ كما أن تشابه الموقف في هذه الحلقات كان من شأنه أن أملى على المجاهدين في سبيل الاستقلال الحقيقي خطة واحدة . وما الشعور الوطني إلا غريزة الدفاع عن النفس ، وهي غريزة طبيعية فطرية إذا كانت سليمة صادقة فرضت على النفوس منطقاً سليماً على اختلاف درجة تعمق الآخذين بها في مبلغ فهمهم إياها عن طريق العقل .

فالسلسلة التاريخية التي بدأت منذ قرن ونصف قرن تقريباً إنما هي عدة فصول في رواية واحدة يطلع عليها القارىء في سلسلة الحركة القومية بقلم رجل يجمع إلى صفاته كؤرخ صفة أخرى وهي صفة المؤمن بتلك الحركة، وهذه مزية ضرورية لمؤرخ أى فكرة ؛ إذ أن عبد الرحمن بك رجل يؤهله طول بلائه فيها لأن يفهمها بروحه ومزاجه فضلاً عن فهمه إياها كؤرخ وكرجل يدرك المرامي السياسية عن طريق إلمامه بالقانون .

احتل نابليون مصر ، وكانت تابعة لتركيا ، وكانت إنجلترا منافسة له تسمى لإخراجه منها . وكانت حجتها في ذلك أن في هذا الاحتلال اعتداء على حقوق الدولة العثمانية التي لم يكن في حالة حرب ضدها بل كان متعهداً بسلامتها بمقتضى المعاهدات . فأخذت تحرض تركيا على التمسك بمقوقها ، وتحرض المصريين على التمسك بعلاقتهم بها ما دام الاحتلال الفرنسي قائماً . وكان نابليون يسعى جهده لحل تركيا على الرضا عن احتلاله لمصر نظير مزايا عظيمة في البلقان ، كما سعى بوسائل شتى لحل الزعماء المصريين على قبول الانفصال عن تركيا فبذل في سبيل ذلك جهوداً عظيمة ، وأدى للشعب خدمات جليلة ، ولكنه لم يفلح مع تركيا ولا مع مصر ، ولذلك تم للمصريين ما أرادوا من عدم تمكن النير الأجنبي من أن يقوم على رضام بسند شرعى . ولو أنهم خدعوا بما أعترأهم به نابليون باسم الانفصال عن تركيا لخلوا الجو أمام احتلاله وهو الإهدار الحقيقي للاستقلال وكانت مصر إلى الآن مستعمرة فرنسية ...

أثبت التاريخ بعد ذلك أن مصر لم تكن بهذا السلاح السلبى تقصد التبعية لتركيا بدليل أنها ما كادت تتخلص من الاحتلال الفرنسى حتى أخذت تعالج مشكلة استقلالها مع تركيا وجهاً لوجه ، فوضعت محمد على على رأسها وحاربت تحت قيادته التبوع الأعظم وهزمت جيوشه ؛ وذلك بفضل استقلالها الداخلى الذى مكها من أسباب القوة القومية ، وهذا لعدم توفر الركن الأساسى للتبعية الفعلية لتركيا وهو وجود جيش احتلال تركى في مصر .

لم يقف الجيش المصرى الظافر على تركيا إلا تدخل دول أوربا التي لا تأخذ الواحدة منهم على المصريين تمسكهم بتركيا إلا عندما يكون هذا التمسك مقصوداً به التخلص منها . أما إذا كان مقصوداً به التخلص من دولة منافسة لها فإنه يصبح عندئذ أمراً منطقياً عليه الوطنية الحققة ولا تعصب فيه للدين ولا للخلافة . ولم يقف الاستقلال الذى عملت له مصر في ميدان القتال

الأستاذ العقاد إذ قال عنه إنه زعيم الوطنية المصرية في ذلك العصر استفاد مصطفى من خلاف فرنسا مع إنجلترا فظن بعض الناس أنه صنيعه فرنسا . فلما نتجت فرنسا عن قضية مصر استمر في جهاده بل ضاعف قواه . واستفاد من خلاف ألمانيا وحلفائها وأيد الخديو ، حتى إذا خرج كرومر وتغير الحال أثبت مصطفى كامل أن انتصاره لعمو عباس حلمي باشا لم يكن إلا انتصاراً للسيادة المصرية لا لشخص الخديو وضاعف المهمة حتى زالت حجة المكابرين الذين قالوا بأنه صنيعه . وكذا كان شأنه مع تركيا شأن المستفيد من مصلحة مشتركة في موقف مبين . وما قوله في شأن الخلافة إلا شأن فرنسا وإيطاليا مثلاً عند اتفاق مصالهما بأن هناك رابطة لاتينية

ولما تولى الحركة فريد . بك ازدادت خطة الوطنية وضوحاً لمناسبة الظروف التي استجدت فقامت الحرب العالمية وهو في تركيا فأفهم رجالها وهم على وشك الهجوم على مصر أن عدم مطالبة المصريين برفع السيادة التركية إنما كان لوجود الاحتلال الإنجليزي اعترفت إنجلترا بأن تكليف مصطفى كامل للاستقلال كان تكليفاً صحيحاً كما اعترفت للجهاديين ضد نابليون عند ما كانت تريد إخراجه من مصر . ويكنى أن يطلع الإنسان على إعلان الحماية ليري هذا الاعتراف إذ جاء فيه : « بما أن تركيا في حالة حرب مع إنجلترا فتزول من الآن السيادة التركية وتصبح مصر تحت الحماية البريطانية »

ولما انتهت الحرب العظمى لم يتمسك رجال مصطفى وفريد بالسيادة العثمانية ، فهذا غير معقول ، وإنما عملوا على ألا يتم تنازل تركيا عن سيادتها إلا لمصر لا لإنجلترا كما عملوا على احتفاظ مصر بما لها من الحقوق في معاهدة سنة ١٨٤٠ . ولذلك سافروا إلى أقره وإلى لوزان ولم يسع ( الوفد المصري ) إلا أن يمت معهم بعض رجاله ويشترك معهم في هذا السعي .

أما ما حصل بعد ذلك فيمكن أن تكليف مصطفى كامل قد سجل له التاريخ نتيجة واضحة وهي أن معاهدة سنة ١٩٣٦ استنفدت برامج جميع الأحزاب ما عدا برنامج الآخذين بمبادئه . محمد المصري

انتظروا عدد الرسالة الممتاز

في صباح ١٣ مارس

عند الحد الذي رسمته معاهدة سنة ١٨٤٠ إلا تدخل تلك الدول خشية فتح باب المشكلة الشرقية بما تقتضيه من التنافس على توزيع أسلاب الدولة العثمانية

وفي سنة ١٨٨٢ احتلت إنجلترا مصر احتلالاً مؤقتاً بموافقة صاحبي الشأن في معاهدة سنة ١٨٤٠ وهما سلطان تركيا وخديو مصر فعاد نفس الموقف الذي كان قائماً أيام الاحتلال الفرنسي . وبعد أن انتهت الحالة المؤقتة التي أدت إلى ذلك الاحتلال أصبحت فرنسا تطالب إنجلترا بالجملاء بنفس الحجبة التي كانت تندرع بها أيام نابليون فسعت إنجلترا سعي هذا الأخير لإزالة العقبة القانونية التي تجمل احتلالها غير مشروع فأوفدت درامنتو ولف إلى الأستانة للاتفاق على تبرير الاحتلال الدائم وهو الحماية ففشلت ، وكان بعض فشلها راجعاً إلى سعي فرنسا التي حاربتها بنفس الحجبة التي حوربت بها قبلاً وظلت تحاربها بها إلى أن اتفقت معها إنجلترا على إطلاق يدها في مرآكش

لجأت إنجلترا أيضاً إلى مثل ما لجأ إليه نابليون من حل الشعب المصري على المطالبة بالانفصال عن تركيا قبل أن يتجلى الجيش الإنجليزي عن مصر وقدمت في سبيل ذلك للشعب المصري خدمات اقتصادية وقامت له بإصلاحات إدارية كسمن لإلهائه عن الاستقلال فنجحت مع بعض الأعيان الذين كانوا يسمونهم أصحاب المصالح الحقيقية فراحوا يقولون إن الاستقلال هو الانفصال عن تركيا قبل الجملاء . وكانت الغاية التي قصد إليها الإنجليز أن تزول من طريقهم إلى الحماية الحقيقية تلك العقبة التي جعلت مراكزهم غير صحيح . ثم شفع هؤلاء المصريون خطتهم بالناداة بالاتفاق مع إنجلترا كما تنكروا لسلطة الخديو المثل الشرعي للسيادة المصرية المقررة في معاهدة سنة ١٨٤٠ حتى تهدم المعاهدة المذكورة من ركنيها الخارجي والداخلي ، هذين الركنين اللذين هدمهما الاحتلال . عندئذ قام مصطفى كامل فهض نهضة استقلالية تامة لاشك في اتجاهها ومراميتها ، وقال مراراً إن مصر لا تريد إبدال متبوع بمتبوع ، ولكنه احتاط عند تحديد المطالب السياسية فجعل هدفه الأول جملاء الاحتلال ووضع أمامه معاهدة سنة ١٨٤٠ سنداً قانونياً سياسياً ضد الاعتداء الحقيقي على تلك المعاهدة

إن القول بأن استفادة مصطفى كامل بالعوامل الخارجية عن الجهود المصرية كان مناداة بالتبعية لهذه العوامل إنما هو قول بعيد عن الحقيقة التي لمسها معاصروه قبل أن يسلموا له بما اعترف به